

البحر العربي الجديد

يجب أن يكون موحداً ثقافياً:

- معرفة حقيقة جواهر الدين

- مواكبة الحضارة الحداثة

الأستاذ محمد سركس ولبناش

مستقبلهم السياسي ومصالحهم العامة بالعالم الغربي .

ان هذا التيار الثقافي جرف عددا كبيرا من المثقفين المسلمين وبصورة خاصة اولئك الذين تربطهم بالاسلام لوراثة اكثر من الايمان، او الذين يمارسون الاسلام بالمصيبة اكثر مما يمارسونه بالعبادة .

وكما هو طبيعي ، فقد تركت الثقافة الغربية آثارها العميقة على :

(1) تفكير هؤلاء .

(2) وعلى طريقة تفكيرهم .

واذا كان موضوع الفكر في حد ذاته ليس هو موضوعنا ، الآن فان طريقة التفكير واللغة هي اداها ووسيلته التعبيرية تكشف لنا عن الوقائع التالية :

1 - هناك دعوة ملحة لاستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني كما جرى في تركيا على يد (اتاتورك) ويتزعم هذه الدعوة الاديب اللبناني (سميد عقل) وقد ألف بالفعل كتابا اسمه (بارا) بهذه (اللغة الجديدة) .

انني من الذين يذهبون مذهب الربط بين الاسلام والعربية . وحسبي برهنة على ذلك ان القران الكريم قد انزل باللسان العربي ، وان ملايين المسلمين - مربا وعجبا - مضطرون الى ان يرتلوه ويتلوه به . ثم انني لاحظت ان مستوى العربية في البيئات الاسلامية ارتقى منه في المجتمعات غير الاسلامية . فانتشار اللغة العربية - في اعتقادي - منوط بانتشار الاسلام . ونحن نعلم انه لما خرجت الدعوة من شبه جزيرة العرب خرجت العربية من تلك البيئة الجغرافية المحدودة ، وانطلقت اني انطلق الاسلام . بل لاحظت ان العربية موقرة ، مبهجة في اوساط المتدينين ، اي حيث يقوى الوازع الديني ويشتد .

اما اليوم فان الثقافة الرائدة في لبنان هي الثقافة الاجنبية التي تحمل لواء نشرها وتعميمها البعثات التبشيرية المسيحية الاجنبية وبعض المؤسسات الاجنبية والمحلية الخاصة .

ثم ان كون نصف سكان لبنان على الاقل من غير المسلمين ، وحرصهم على اظهار لونها وكيانهم الذاتي وسط مجموعة من الشعوب الاسلامية التي تحيط بهم في منطقة الشرق الاوسط ادى الى اندفاع هذه الفئة من اللبنانيين نحو الثقافة الغربية بصورة عامة لارتباط

2 - وهناك أيضا دعوة لاستبدال اللغة العربية الفصحى باللغة المحلية المحكية . وقد نشرت بالفعل عدة مقالات وابحاث وصدرت كتب مختلفة « بهذه اللغة » ايضا .

3 - وهناك كذلك دعوة تلقى رواجاً واسعاً في اوساط المثقفين اللبنانيين للخروج من دائرة التعبير اللغوي التقليدي الرصين ، الى دائرة اقل التزاماً بمبادئ اصول اللغة ، وذلك على غرار ما يجري في الدول الاوروبية حديثاً ، ولعل ما بات يعرف الآن بالشعر الحديث هو واحد من نتائج هذه الدعوة .

على ضوء هذه المعطيات الاولية قد يكون من المفيد ان نعود قليلاً الى الوراء ، الى فترة الحكم العثماني في المنطقة العربية ، فلقد كان دين الدولة الاسلام ، دستوراً وممارسة ، وكانت العناصر غير الاسلامية خاصة في لبنان ، تحمل لواء اللغة العربية في مختلف اقطار المنطقة ولاسيما في مصر والعراق . اذ انه في ذلك الوقت ، لم تكن « شخصية » تلك العناصر تتمتع بما تتمتع به الآن من استقلال ذاتي من بقية مجموعة الشعوب العربية .

اما في وقتنا الحاضر فلا يقتصر ما هو كائن على عكس ما كان ، بل ان شعارات الثورة والتقدمية تم بعض الدول العربية حتى تبدو هذه الدول ، وكأنها تحللت ، او على الاقل تحاول ان تحلّل من الاربطلة التي تشدها الى الاسلام كدين للعبادة وكمنهج في الحياة .

واذا اخذنا لبنان الذي كان منارة الثقافة العربية ، بالتالي منارة اللغة العربية في العهد العثماني ، فاننا نجد الان يتجه بعمق نحو الثقافة الغربية شكلاً ومحتوى ، نتيجة التحولات المشار اليها في صميم تكوينه المجتمعي . فانتاج دور النشر اللبنانية هو بالفعل انتاج غزير جداً ، غير اننا بعد التعمق في درسه نجد ان اكثره الساحقة هي عبارة عن مترجمات او مقتبسات من الادب او الفكر الغربي ، ونجد ايضا ان الانتاج العربي الصميم غالباً ما يقتصر على اعادة طبع مؤلفات قديمة او تلخيص لتلك المؤلفات . واما الانتاج الحديث فهو في اكثره منطلق فكرياً من معطيات لا تمت الى العربية الا بصلة كون الحواجز مرفوعة بين منابع الثقافة العالمية في عصر صغرت فيه الدنيا ولم يعد يحسب للمسافات حساب .

وهناك ايضا امر آخر لا بد من الوقوف عنده وهو ان نوع المادة المكتوبة في الثلث الاخير من القرن العشرين تفرض الى حد معين نوع اللغة . وبكلام آخر ، لقد تفتحت امام العالم آفاق علمية واسعة من المعرفة ، واستحدثت كلمات وتعايير لم تكن موجودة في اللغات من قبل ، ولما كان موكب الحضارة العربية في هذا الوقت مقصراً عن اللحاق بالركب العالمي ، فان اللغة العربية تبدو بالتالي مقصورة هي الاخرى . ليس المهم هنا القاء المسؤولية على عاتق اللغة او على عاتق اصحاب اللغة انما المهم هو اقرار الحقيقة التالية :

ان انتشار او انحسار اللغة العربية ليس مرتبطاً دائماً بقوة او بضعف الاسلام ، انما هو انعكاس لمدي انفتاح او انغلاق الفكر العربي ولمدى تقصيره او مساهمته في عالم الكشوف العلمية والتحولات السريعة في معرفة حقائق الكون المجبولة .

ومهما بدل العربون من جهود فانهم يبقون عاجزين من ازالة هذه الوصمة من جبين اللغة العربية رغم ان هذه اللغة مهيأة في تكوينها الطبيعي لاستخراج كل ما يحتاجه العلم الحديث من كلمات وتعايير جديدة .

ان المجتمع العربي كما يبدو اكثر وضوحاً في لبنان منه في أي مكان آخر يقوم على اساس ثقافتين اثنتين ، الاولى : ثقافة دينية تجهل اصول العلم والتقنية الحديثتين ، والثانية : ثقافة علمية مجردة ، جاحدة او جاهلة لحقيقة الاسلام . ومن المؤسف ان يكون الاحتكاك بين هاتين الثقافتين ، على حساب اللغة العربية من حيث ان الاولى المتهمة بالجهل والتأخر والعجز عن مواكبة تطور العصر تستعمل اللغة العربية اداتها التعبيرية ، فتتفرق الثانية منها وتزيد في اندفاعها نحو اللغات الاجنبية التي تعتبرها لسان الحضارة . ولذلك فكثيراً ما نسمع مهندسا او طبيباً او حتى محامياً يدمي انه يفكر باللغة الاجنبية ، افضل واسرع مما لو يفكر باللغة العربية . من كل ذلك ، اريد ان اسجل الحقيقة التالية ، وهي ان هناك اسباباً نفسية واخرى ثقافية حديثة الى جانب الاسباب الدينية ، تلعب دوراً اساسياً في تفرير قوة او ضعف اللغة العربية في المجتمعات الاسلامية . ولعل ذلك ما يفسر الفشل في تعميم اللغة العربية حتى الآن في باكستان واندونيسيا وماليزيا او حتى

21

2 - ويدرس مختلف أنواع العلوم باللغة العربية بعد أن يكون قد تم تعريب المصطلحات والمفردات المستحدثة . وبذلك ينبثق من المجتمعات الإسلامية جيل موحد الثقافة يجمع بين معرفة حليقة جوهر الدين الإسلامي من جهة ، ويواكب سير الحضارة المصرية من جهة ثانية بلغة واحدة قادرة على أن تلبي كل حاجيات التطور ومتطلباته .

في بعض الاقطار الافريقية حيث كل السكان او اكثرية الساحقة من المسلمين الذين يتمسكون بلغة القرءان الكريم كاحدى الروابط الدينية المقدسة التي لا انفصام لها .

اما كيف يمكن التغلب على هذا الواقع فربما تكون هناك وسائل عديدة اهمها في نظري يقوم على تنشئة جيل جديد يدرس :

1 - الثقافة العينية جنباً الى جنب مع الثقافة العلمية الحديثة .